« تربية سلامه موسى »

بقلم عاطف أحمد

« والتربية الحقيقية ، وهي ثمرة العمل لكل انسان ، هي في النهاية اختباراته طوال حياته .. وليست هذه الاختبارات هي ما يقع لنا ، بل هي الرجوع والاستجابات لما وقع لنا » :

فما هي الاختبارات التي وقعت لسلامه موسى ، وكيف كانت استجابته لها ؟

الاختبارات التي يعيشها الانسان طوال حياته، ليست سوى تعبير حي عن التفاعل بين هذا الانسان وبين المجتمع الذي يعيش فيه ، فالاختبارات الانسانية هي الافراز الطبيعي لحركة الظروف الاجتماعية الملاصقه لنا ، والتي تعبر بدورها ، في طابعها العام ، عن حركة المجتمع كله ، في تفاعله وتطوره الدائم .

وباختلاف الظروف الاجتماعية الخاصة لكل فرد في المجتمع ، تختلف مستويات اختباراتنا في الحياة ، اذ ان مستوى اختباراتنا ، ينبع من مدى العمق والترابط المتبادل بين ظروفنا الخاصة ، وبين الجوهر الاصيل لحركة المجتمع الصاعدة .. فيتدرج ابتداء من الانسان العادي ، المنعزل عن الوعي بالظروف الاجتماعية العامة ، الذي لا تتعدى اهتماماته حدود مصالحه المباشرة السطحية ، حتى تصل الى قمتها لدى المفكر الثوري .. الذي يعيش قضايا المجتمع بكل طاقته الخلاقة ، حتى تصبح هذه القضايا هي نفسها قضاياه الذاتية .. وتصبح الاختبارات التي يعيشها ، هي نفسها ، الاختبارات التي يعيشها المجتمع في حركته الصاعدة ..

فالمفكر الثوري في طفولته ، هو شريط حساس للغاية يلتقط بذكاء الصور الاجتماعية المتناقضة ، فتنطبع في نفسه ، وتظل تتفاعل وتتصارع ببطء ولكن باستمرار ، حتى اذا وصل الى مرحلة المراهقة بدأت المعركة تتخذ شكلا وبدأت السمات الثورية المميزة تتغلب ، وتحقق انتصارات صغيرة ، تظل تنمو بدورها حتى تشكل نصرا حاسما ، ثم تتبلور الشخصية وتتحدد وتتميز بطابعها الخاص ، وحينئذ تبدأ مرحلة جديدة طويلة ، هي مرحلة النضال ضد القوى الرجعية ، من اجل تشييد دعائم مجتمع جديد على انقاض المجتمع القديم الافل ..

وهذا هو الخيط التطوري العام الذي يميز تربية المفكر الثوري سلامه موسى ...

***

لقد عاش سلامه وهو على وجدان يقظ بالحوادث ، فترة فذة « **من حيث انها فترة الانتقال من مجتمع الامس الى مجتمع الغد ، ومن تحول الانتاج من النظام الفروي الزراعي الى النظام المدني الصناعي ومن الغيبيات الى الماديات** » .. وفترات الانتقال في حياة المجتمعات تتسم دائما بالصراع الثوري الحاد ، بين القديم الافل الذي يستميت في الدفاع عن نفسه من اجل البقاء ، وبين الجديد الصاعد الذي يشق طريقه بقوه الحياة محطما كل السدود ، مصمما كل التصميم في طريق الغد .. وهذا هو الاختبار الحقيقي الذي صنع سلامه موسى ورباه .. لقد عاش الصراع في المجتمع المصري في النصف الاول من القرن العشرين ، باعصابه ودمه ، عاشه من بداية حياته الى نهايتها ، وكيف لا يعيشه وهو نفسه القائد الحقيقي للثورة الفكرية التقدمية المعاصرة ، في شرقنا العربي !

***

في طفولته وصباه ، وكل ابناء الجيل الجديد، رضع سلامه موسى الافكار والنظم الاقطاعية الغيبية ، التي كان الاستعمار الامبريالي يصر على بقائها في المجتمع، حتى تمتص القوى الثوريه التي يخاف منها خوفه من الموت ، وحتى يكفل لنفسه البقاء بتجميد الوضع السائد، رضع سلامه القيم الاقطاعية متمثلة : في التعاليم الدينية الجامده التي ورثها الاقباط « **كما كانت حين تجمدت في الدوله البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس** ». ومتمثلة في التقاليد العائلية المغلقة ، التي ادركها منذ ان ضرب من اخته لانه ناداها باسمها في الشارع اذ كان من الشعائر الاجتماعية الا تعرف اسماء الفتيات حينذاك ، الفتيات المختفيات وراء الحجاب منذ الصبا وكأنهن خطيئة، والتي احسها في الزامه بالطاعة العمياء ، تلك الطاعة التي اخذت تؤكدها في نفوس التلاميذ ، المدارس التي لم تكن حينذاك سوى ثكنات ، كل ما يستحق الاهتمام فيها هو الطاعة ، ومتمثلة في الخرافات التي لمسها بصورة مباشرة من عقائد امه التي جعلته يقضي طفولته في ملابس سوداء، يحمل عبئا من التعاويذ يعوق الحركة الحرة ، وفي اذنه علامة الثقب الذي علق به قرطا ايهاما بانه ليس غلاما حتى يتقي بذلك العين،ومتمثلة في النظر الى قسوة الظروف التي يحياها الناس ، وكأنها شيء طبيعي يتحتم على الانسان ان يسلم بشرعيته ... **رضع سلامه هذه القيم ، في صورة جرعات صغيرة ، متكررة ، ولكنه رضعها بطريقة ثورية حساسة ، تؤكدها لنا ظروفه الاجتماعية الفردية الميسره التي اتاحت له ان يختلط بالفلاحين فيدرك مدى قسوة ظروفهم الحياتية ، ويحبهم من اعماقه ، ويلتصق بالارض الطيبة فيعشقها بل يقدسها ، والتي اتاحت له ان يقرأ ويفكر والقراءة والتفكير هما بداية الخيط الطويل الذي يمسك في نهايته بالمعول الكبير الذي يحطم بناء الفكر الغيبي الاقطاعي**

المستبد ، ليشيد على انقاضه بناء الفكر العلمي الديمقراطي المستقل ، ولقد امسك سلامه باول هذا الخيط منذ صباه.

***

في بداية مرحلة الشباب ، وفي غمرة الصراع بين وجدانه المتطلع الى المعرفة والحرية ، وبين التقاليد والنظم الاقطاعية بكل جمودها ، وتبعيتها ، التقى سلامه بمعلمه الاول : دارون .. وكان لقاء حارا .. بل اكثر من حار « في مجتمعنا المصري كثير من الكظوم التي ترهق الذهن بالقيود والسدود ، وكان الايمان بنظرية التطور نوعا من التفريج والانتقام ، ولذلك وجدتني في ذلك الوقت ، داعيا متحمسا لهذه النظرية » « والحق أن هذه النظرية كانت رؤيا جديدة لشاب مثلي لم يكد يخرج من طور الصبا » ولماذا ؟؟

« لانه ـ دارون ـ اكسبنا فهما جديدا للطبيعة والكون والانسان. وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل».. لقد كانت نظرية التطور تمثل بالنسبة اليه شيئين رائعين : الحرية ، والنظرة العلمية للحياة ، والحرية هي ـ دائما ـ حجر الزاوية في كل بناء جديد ، والنظرة العلمية للحياة هي السلاح الوحيد الذي يحطم الغيبيات والاساطير ، ويقدم للانسان النور الحقيقي .. والحياة الحقيقية ..

وكان التقاء سلامه بدارون .. هو بداية الطريق الطويل ...

فقد التقى سلامه ، باخرين من رواد الحرية والعلم ، التقى بفولتير وروسو وديدرو ، وبلقياهم التقى بأدب العقل الذي يحس والقلب الذي يعقل ، ادب الثورة والتمرد ، الادب الذي يحطم صورة الادب العربي في ذلك الوقت ، ادب السلطة والتقاليد والعقائد ، والذي يعلم الانسان « **ان حرية العقل وحرية العقيدة وحرية الضمير هي اثمن ما يملكه البشر** » ،

ثم التقى ، سلامه ، بقوة جديدة في مصر ، اخذت تدعو الى الوطنية المصرية في وقت كانت فيه الوطنية المصرية يرقة لم تنسلخ بعد الى الجسم الحي الكامل ، لم تنسلخ بعد من الدولة « العثمانية » التي كانت دولتنا التي نكافح بها الامبراطورية البريطانية ، وبذلك جعل لطفي السيد ، بامكانه ـ بوصفه غير مسلم ـ ان يصبح وطنيا في بلده المستعمر .. مصر ..

ولم تكن كل هذه التفتحات الجديدة ، سوى كوة مضيئة ، في غرفة السجن الاجتماعي الذي يقف سلامه في ١٩٠٧ « حالا من القلق النفسي والثقافي جعلت مقامي في مصر شاقا » .. ولذلك « سافرت الى اوروبا وانا على غير وجهة تعليمية معينة سوى الحصول على الثقافة العصرية باية وسيلة » .

***

وفي فرنسا ، احس سلامه بدهشة ، بل بصدق منبهة .. حينما رأى مجتمعا يخالف المجتمع الذي نشأ فيه في مصر .. مجتمعا ذا رائحة جديدة ، وجو جديد .. مجتمعا حرا مفتوحا ... تمارس فيه المرأة حريتها كاملة ، ويمارس المفكر فيه حريته كاملة ، مجتمعا دائم الحركة والتغير .. وحينما هبط سلامه باريس : كانت شهواته الذهنية ملتهبة .. فالتقط بروعة ولهفة ... كل القيم الجديدة النامية حينذاك ، فلقد احس حينما رأى المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها ، احس ان افقا جديدا يفتح امامه .. ويقوده فيما بعد ، الى الثورة على التقاليد المصرية التي لم يعد يطيق عليها صبرا .. وحينما رأى جنازة تسير في احد الشوارع تتقدمها راية كتب عليها « لا رب ولا سيد » ، احس بصدمة موجعة ... بل موقظة .. وفي فرنسا ، ايضا ، التقى سلامه بالاشتراكية ، وبالنزعة العالمية في السياسة .. وكانت رؤيا جديدة اخرى ..

وكل هذه الرؤى الجديدة ، صنعت من سلامه انسانا اوربي التفكير والنزعة ، نعم .. لقد كان يرى العالم الجديد بذهنه فقط ، ولكنه الان اصبح يعيشه بكل كيانه .. واذن، فقد تغيرت الارض التي كان يقف عليها .. لقد اصبحت خصبة .. واصبح لديها القدرة الخلاقة على اثبات الازهار المتفتحة بدلا من الاعشاب السامة ..

الا ان البذور لم تغرس تماما ، الا في لندن .. حينما التقى بابسن ، داعية الشخصية البشرية المستقلة وداعية انسانية المرأة وحقها في الحرية وكسب الاختبارات في الحياة ، وحينما التقى بنيتشه .. المفكر الذي يقتحم العقل اقتحاما .. فيحطم كل الرسوبات الغيبية المتبقية فيه من فتات القرون المظلمة ، وحينما التقى بصديق عمره شو: ذلك المفكر الاديب الذي يؤمن بأن الانسان سيتغير جسما ونفسا الى الانسان الاعلى ، لان التطور يقضي بذلك ، والذي يجعل رسالته هي ان يبعث وجدان التطور في قرائه .. وحينما التقى بويلز الذي اكسبه المزاج العالي والتساؤل والاستطلاع الدائم والتوسع الثقافي في العلم والادب والفن، واخيرا .. حينما التقى بماركس الذي جعل الاخلاق والاجتماع

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

والسيكلوجية علوما ، لها من الدقة ما لعلم البيولوجيا مثلا، لا يستطيع ان يفهمها بصورة صحيحة الا الماركسي .. في لندن ، نمت هذه البذور ، وظلت تنمو في خلايا مخ سلامه ، حتى نهاية حياته .. وكلما ازدادت نموا ، ازداد المجتمع المصري حياة وخصبا ، في حركته الثورية الصاعدة ..

***

حينما كان سلامه في لندن ، تساءل : ماذا انا عامل في هذه الدنيا ؟ من هم خصومي الذين يجب ان اكافحهم، ومن هم اصدقائي الذين يجب ان اؤيدهم ؟.. واجاب : ليس لي مارب في هذه الدنيا ، وانما قصدي ان افهم ، ان اعرف كل شيء ، وان آكل المعرفة اكلا ، ثم عاد فقال : ولكن لماذا ؟ واجاب : لاكافح .. لاكافح الانجليز حتى يجلوا عن وطننا .. وايضا أكافح تاريخنا ...، اكافح هذا الهوان الذي يعيش فيه ابناء وطني: هوان الجهل،وهوان الفقر .. اجل.. انني عدو للانجليز ، وعدو للالاف من ابناء وطني ، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية وحرية المرأة ، ويؤمنون بالغيبيات .

وحينما عاد سلامه الى مصر ، بدأ اشرف معركة في الوجود ، معركة تطوير مجتمعنا المصري ، معركه تحطيم الغيبيات والنظم الاقطاعية التي تعيش على دماء الناس الشرفاء ، معركة ارساء دعائم القيم البشريه الجديدة : قيم العلم ، والتطور ، والاشتراكية ، والمرأه الشابة والادب للشعب ، والديانة البشريه ، تلك القيم التي صنعت حياتنا الجديدة ، وما زالت في طريقها لصنع غد اكثر اشراقا ، وكان القلم هو السلاح الرائع في يد مفكرنا العظيم ((ان لي استغراضا ديمقراطيا في جميع ما أكتب ، يحملني على مكافحة الظلمات التي لا تزال حية في شرقنا العربي ، في الاجتماع ، والاقتصاد والعقيدة ، ولكن لم يتغير موقفي من حيث اني كاتب مذهبي يساري ، اكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا امامنا ، كما اكافح ايضا الاقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية في الامة العربية)).

***

لقد عزف سلامه موسى بدمه ، اعظم سيمفونية انسانية نبعت من اعماق شعبنا المناضل ، ولقد كانت هذه السيمفونية هي تربية **سلامه** الحقيقية ، التي علمنا اياها، والتي ستفرش طريق الغد المشرق بالازهار المتفتحة للحياة .

القاهرة — **عاطف احمد**

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

قريبا :

في سلسلة المسرحيات العالمية

رؤوس الآخرين

مسرحية في أربعة فصول

بقلم

مارسيل ايميه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

مسرحية رائعة يصور فيها الكاتب الساخر مارسيل ايميه القضاء الفرنسي وما يحيط به من فضائح . وقد قدم المؤلف للمحاكمة ، ولكن القضاء الذي هاجمه قد براه !! ..

منشورات دار الاداب